عودة إلى الأدب العربي غير المقروء

بقلم الدكتور جبران الخياط

ان كثيرا من نصوصنا الادبية القديمة لم يقرأ قراءة صحيحة ، ولقد جزأنا ــ عبر العصور المتعاقبة ــ قسما كبيرا من تلك النصوص وفصلناه عن الاطار الذي نشأ فيه وأخضعناه لرغباتنا الشخصية وقابلياتنا الثقافية ، وقرأنا كثيرا من نصوصنا الادبية الحديثة بتعجل فلم نفهم منها شيئا فوصفناها بالغموض، ولم يدر في خلدنا يوما أن نجد العلة في أنفسنا ومعرفتنا وطريقنا في الفهم .

هذا الامر وأمثاله دعاني الى كتابة مقال أطالب فيه بدراسة أدبنا العربي قديما وحديثا بتأن وهدوء دون أن تتدخل أهواؤنا الخاصة في تناول النص الادبي بعيدا عن روح قائله وظروفه ، وكان عنوان ذلك المقال : « الادب العربي ليس مقروءا » ــ الاداب ، العدد ٦ ، ١٩٦٧ ، ودعوت في مقالي هذا أن تقرأ النصوص جميعا كوحدة قائمة بذاتها غير منفصلة عن قائلها ، وهاجمت بعنف غباء قانصي الابيات الشعرية ليستشهدوا بها في أحاديثهم اليومية دعما لآرائهم النفعية أو سدا لاضطراب في أفكارهم الشخصية .

ولقد لاحظت ان طريقتنا في دراسة النص الادبي تشبه الى حد بعيد عملية معمارية يقوم بها مهندس مجنون ، كأن نطلب اليه أن يقدم تقريرا عن المواد الانشائية لعمارة انتهى بناؤها حديثا فيعمد الى تهديمها كليا ليدرس كل حجر بصورة منفصلة ثم يعود فيخضع المواد التي شاركت في تماسك البناء الى أنابيب الاختبار فلا نحصل في النهاية الا على حطام مع تقرير علمي ممتاز يشير الى جودة تلك المواد . هذا ما يحدث غالبا في دراسة النص الشعري ، فبعض الناس ينظرون اليه حرفا حرفا وكلمة كلمة لا يستطيعون أن يحكموا على البناء الا بتهديمه وفحصه جزءا جزءا ، لذا قال قسم من النقاد في معرض تناولهم لبعض النصوص ان الشاعر لو استعمل هذه الكلمة لكان أوقع .. الخ ، انهم يفتحون جزءا ضئيلا من الضوء على النص الادبي ويدرسون فقط ذلك المقطع المضاء ثم ينتهون منه فيسلطون الضوء على جزء اخر وهكذا ...

وأشياء أخرى هدف اليها ذلك المقال ، ولقد قرأت ردا عليه كتبه الدكتور حسام الالوسي بعنوان : « طبيعة القصيدة العربية الكلاسيكية ومسائل اخرى » ــ الاداب، العدد ٩ ، ١٩٦٧ ــ ، وأعجبت بهذا الرد لما فيه من عمق ودراية وثقافة متأنية ، ولكن الكاتب الفاضل وقع في الخطأ نفسه ، فقد جزأ مقالي كما سبق أن جزأ بعض نقادنا القدماء النصوص الادبية فاستنتج انني أردت أن أقول : « ان للقصيدة العربية وحدة موضوع ، وان هذه الوحدة فقدت بسبب التجزيئية ، وان القصيدة التي يبدو انها تفتقد وحدة الموضوع لا بد أن يكون الشاعر نفسه هو وحدتها ، وان المتنبي ليس حكيما ، ثم يقول الكاتب الفاضل : « تلك هي أهم الاحكام التي يمكن العثور عليها في المقال » (ص ٦٥) ، ثم يقرر ان مقالي تسوده روح التعميم والمبالغة لدعواي ان أحدا لم يفهم المتنبي من خلال نفسيته في تحليله للقصيدة ، ونفيي ان المتنبي كان حكيما .

وهكذا اغفل الدكتور حسام الالوسي عنوان المقال بأن الادب العربي ليس مقروءا ، وهدفي منه أن تقرأ النصوص في الاطار الذي وضعت فيه ، وان لا نفهم الاهانات على انها حكم صالحة للاستعمال في كل زمان ومكان ، ولم تكن غايتي من ذلك المقال : « تحريك الجمود في معارضة الشائع المجمع عليه » (ص ٦٥) ، او اثبات الوحدة للقصيدة العربية .

ولا بد لي أن ألم هنا المامة بسيطة بموضوع الحكمة في شعرنا القديم والرمز والاسطورة في شعرنا الحديث.

ان الحرية الفكرية في القول والعطاء التي افتقدها بعض شعرائنا قديما وحديثا جعلتهم يلجأون الى الحكمة في الماضي والى الرمز والاسطورة في الحاضر ، فالمتنبي ــ كما قلت في مقالي ــ لم يكن بامكانه ان ينهي لمخاطبه مباشرة بأنه غبي لا يستطيع التمييز بين الغث والسمين ولا يفرق بين الصالح والطالح ، لذا التجأ الى ما اعتبرناه نحن خطأ من الحكم فقال :

وما انتفاع أخي الدنيا بناظره
اذا استوت عنده الانوار والظلم

هذه اهانة أخذت شكل حكمة ، فاذا جردناها من النص وقائلها كانت حكمة ، واذا درسناها في النص وأرجعناها الى نفسية وظروف قائلها كانت اهانة ، وما أبعد الاهانة عن الحكمة ، وما أبعد عقولنا عن أحاسيس الشعراء ، فالمتنبي لم يكن صائغ حكم أراد أن يرسل منها جمهرة ليستعملها الناس عند الحاجة .

ولجأ الشاعر المحدث كأخيه الشاعر القديم الى الرمز والاسطورة ليعبر عما يجيش في نفسه من مشاعر لا يستطيع التعبير عنها مباشرة ، وأمثلة ذلك كثيرة واضحة عند الشعراء المحدثين كسعدي يوسف وصلاح عبد الصبور ومدني صالح وأدونيس وخليل حاوي

وغيرهم ، والسياب خاصة ، فقد كان لسبروس وعشتار وتموز وفارس النحاس وفارس الحجر وغير هذا وذاك ظلال من أشخاص عاشوا في هذا القرن وأحداث عرفت فيه ، ولا أريد أن أفصل كثيرا في هذه المسألة ، فقد أفردت لها فصلا خاصا في كتابي : « الشعر العراقي الحديث : مرحلة وتطور » الذي أعده للطبع .

لقد استشهدت بقصيدة المتنبي « واحرقلباه » وما أردت بذلك أن أدرس المتنبي وشعره ، انما وددت أن أتخذ من هذه القصيدة نموذجا يظهر الى أي مدى تستطيع التجزيئية أن تخرب النصوص الادبية ، ولم أدع ان ما يصح في هذه القصيدة ينطبق على شعر المتنبي عامة أو الشعر العربي كله ، ولم تكن الغاية من المقال دراسة المتنبي ولذا ما كان عليّ – كما يقرر الدكتور الالوسي – أن أقرأ شعر المتنبي كله ثم أعود فاصدر عليه الاحكام التي تضمنها المقال ، لقد تعمدت أن تكون بعض تلك الاحكام قاطعة نافذة لكي أحرك جزءا من هذا الجمود الذي كسا عقولنا بطبقة كلسية يصعب معها النفاذ الى أية الماحة ذكية تكمن في قصيدة شعرية ، أما ما ذكره الكاتب الفاضل عن حضور أبي فراس الحمداني وقت انشاد تلك القصيدة وتلك القصة المعروفة عن رده لاكثر أبياتها الى أصول جاهلية ، فقد نفيته في مقالي معتمدا المصادر المعروفة ، ولقد ذهب الكاتب الى انني لو اتبعت الطريقة العلمية لما قلت ان قصيدة المتنبي لم تدرس الا أبياتا منفردة ولم يلتفت أحد الى أوضاع الشاعر النفسية، وأنا أؤكد هنا ان أحدا لم يدرس هذه القصيدة كوحدة قائمة بذاتها ، ولم يقل ان حكمها ليست سوى اهانات موجعة موجهة الى رهط سيف الدولة ومجلسه .

ويرى الدكتور حسام الالوسي ان التجزيئية لا تضر بفهم الشعر ، وأعتقد ان هذه التجزيئية هي كمن يهدم دارا ليقدم تقريرا عن صلاحية موادها الانشائية ، ويستشهد الدكتور بقول أبي فراس : « وداوني بالتي كانت هي الداء » ، الذي استعمل كاستعارة تمثيلية فقيل في مناسبات متشابهة ، وهذا لا يبرر مطلقا أن نجزيء النصوص الادبية لنفهمها مقطعة الاوصال ، وكم من مثل « وداوني » في الشعر !؟

ولا أظن انني أستطيع أن أتقبل ما ذهب اليه الكاتب الفاضل من : « ان الناقد يكتشف المقاييس النقدية في الادب السائد ولا يبتدعها اعتباطا ، أي ان المقاييس النقدية تنشأ من نوع الادب الذي يعالجه الناقد كما ان قواعد النحو والبلاغة العربية وجدت بعد التكلم بالعربية لا قبلها » (ص ٦٧) ، فهذه دعوة سلفية في النقد تربطنا بالنماذج التي وجدت وتمنعنا من النفاذ الى المستقبل برؤية واضحة في سبيل عمل أدبي متكامل ندعو الشعراء العرب اليه ، فأنا أرى الان ان الشعر العربي سائر الى الاداء المسرحي الذي يمكن أن نستمد منه ونفرع عنه النص والتمثيلية والفيلم السينمائي والتأليف الموسيقي والاناشيد الشعبية والاوبرا وغير هذا وذاك ، بما يشيع بين الناس في اطارهم الشعوري وأهوائهم الانسانية ، ويسعدني هنا أن أشيد بمأساة الحلاج للشاعر صلاح عبد الصبور وأن أبشر بمسرحية شعرية أخرى كتبها الشاعر العراقي مدني صالح وسماها « بقايا التجربة » ويسرني أن أراها منشورة على نطاق واسع قريبا ، فهي ستغير كثيرا من المفاهيم الشعرية السائدة، ولعل العطاء الشعري الذي قدمه سعدي يوسف لقرائه يتخذ يوما ما سبيلا الى الاداء المسرحي .

ان زمن القصيدة الواحدة ذات الصفحة الواحدة والنفثة الشعورية الواحدة والعطاء الوجداني – الالتزامي قد ولى ، واننا سائرون حتما الى الاداء المسرحي والعمل المتكامل .

وقد فسر الكاتب الفاضل دعوتي الى قراءة النصوص الادبية القديمة والحديثة بأناة وصبر مفرقين ما بين الاهانة والحكمة وما بين الشتيمة والفخر بأنها دعوة سلفية : « تتضمن شعورا بالخيبة عند أصحابها من ان ما بين أيديهم من تراثهم فكرا أو تشريعا أو أدبا لا يستطيع أن يلائم أو يفي بالجديد من مقابلات هذه الامور ، ولا أن يسد حاجات الحاضر ، ولما كان هؤلاء مشدودين الى الماضي بأكثر من رباط فانهم يشطبون على الماضي كله متمسكين منه بالاصول فقط، طالبين من الناس أن يعيدوا النظر في أصولهم وأن يجدوا فيها مفاتيح الحاضر كله ، والذين ينظرون الى شعرنا القديم ثم يقارنونه بالادب العالمي المتقدم يشعرون بمرارة تصوغ نفسها دعوات اعتذارية بمثل هذه الدعوة الى ان كل شعرنا وما فعله القدماء حتى عصرنا هذا هو ليس قراءة صحيحة له ، وعلينا أن نعيد قراءته من جديد على ضوء مقاييس غير التي وضعها القدماء وأقرها الشعراء لنجد فيه ما لم يجده من سبقونا » (ص ٦٧) ، ثم يستمر الدكتور الالوسي قائلا : « ولست أدعي ان العودة الى الماضي جريرة واثم ولا ان النظر فيه ضلال ، انما هو في الواقع أمر نافع لا مفر منه على كل حال بصرف النظر عن نفعه أو ضره ... انني أشفق على أنفسنا ان نضيع الجهد مرارا وأن نفرط ونحن في بداية طريقنا بمسألة التوازن الحضاري ، أعني أن نعطي لكل المسائل ذات الاهمية جهدا متساويا ، وبقدر ما يخص الامر الادب ودراسته . اننا بذلنا مئات السنين وما زلنا نبذل الكثير لدراسة أدبنا وباقي أقسام تراثنا وآن لنا أن نكرس جهدا مساويا لدراسة تراث الغير ، اننا مثل أهل الكهف وآن لنا ان نخرج من حدود كهفنا لنشاهد ما عند الاخرين ، وانني أعتقد بأن ما نكرسه في هذا السبيل هو أقل من القليل » (ص ٦٧) .

وهذا كلام طيب يفصح عن مدى اخلاص الكاتب الفاضل في تفهمه لهذه الابعاد التي تلف وجودنا الشرقي، الا انني لا أظن ان علاقة ما تربط بين السلفية في الادب

وبين دعوتي الى تفهم النصوص الادبية تفهما صحيحا مرتبطا بالمبدعين بعيدا عن نفعية القائصين ، فالسلفية ـ كما تتردد على ألسنة الادباء اليوم ـ هي العيش في الماضي والتمسك بقشوره لا بجوهره وتفسير الظواهر الحديثة طبقا لمفاهيم قديمة ، وتسرب الافكار المحدثة في بيئة عتيقة دون أن تبدل شيئا من أجوائها وأهوائها ، وهي التي تفسر فشلا حاضرا بنجاح سابق او تبرر غباء مطبقا كواقع بشجاعة فائقة في متاهات الاوهام والاساطير ، لا ننفذ الى المستقبل بنظرة أو تطلع او أمل ، وهي العلة التي شلت بعض ظواهر وجودنا ، ولكن هذا لا يعني اننا لا نستطيع أن ندرس النصوص الادبية دراسة صحيحة لتعيننا على تفهم أفضل وعلى ابداع أتم فيما نريد أن ننتجه أو ننقده في المستقبل ، لذا فأنا لم أقارن بين شعرنا القديم والادب العالمي ولم أشعر بمرارة في تلك المقالة تصوغ نفسها دعوة اعتذارية ولكنني أحسست اننا اذا لم نستطع أن نتفهم نصوصنا القديمة بشكل صحيح فكيف نبدع نصا يتخطى محليته ليتبوأ مركزا لائقا على كوكبنا الارضي ؟! هذا وقد ذكرت في مقالي « ان طريقتنا في الفهم جعلتنا بمنأى عن شعرائنا الذين لم نتعرف عليهم بعد ، وهي التي أدت ببعض الكتاب الاجانب الى الاعتقاد بأن القصيدة العربية مفككة الاجزاء وليست عملا فنيا كاملا بذاته » ، ثم ذكرت رأيا لدرموند ستيورت مؤداه ان القصيدة العربية تفتقد وحدة الموضوع ، وقد أرجع الدكتور حسام الالوسي هذا المنحى في تناول النص العربي الى مصادر كثيرة لكتاب أجانب منهم رينان ولابي وليون غوتيه وذكر بعض ارائهم في خصائص العقلية والحضارة العربية ، وبما ان هدف مقالي هو اعادة النظر في النصوص ونبذ الطريقة العشوائية في تفهمنا لتلك النصوص لذا فان الاستطراد في ذكر اراء الكتاب الغربيين في هذه المسألة بالذات غير ضروري ، وان كان مفيدا ، وقد أحسن الكاتب في هذه التفصيلات الا اني لا أرى علاقة وثقى بينها وبين ما هدف اليه مقالي ذاك .

ويرى الكاتب الفاضل ان انعدام وحدة الموضوع في القصيدة العربية مرده الى أمرين : الاول هو ان الشاعر الجاهلي لا يشعر بفرديته بل بقبيلته ، وهذا خطأ فالفردية ظاهرة تماما في تصرفات الشاعر الجاهلي وأقواله ، ونظرة عامة نلقيها على شعر امرىء القيس وطرفة وعنترة ولبيد وآخرين تظهر لنا تطرفا في الفردية واستقلالا تاما عن العالم وضربا في هذه البوادي الشاسعة المترامية الى آخر الدنيا ... لقد كانت القبيلة تقيم طقوس الافراح وتترنم بالاهازيج حين ينبغ فيها شاعر ليدافع عن أعراضها ويصف أيامها ويشيد بمكارمها ، ولقد كان الشعر انذاك جريدة العصر ، به يتعرف الناس على أحوال القبائل عامة وتنقلاتها وآلامها وهمومها وأفراحها وحروبها ومدى ايغالها في المكارم والامجاد ، الا ان هذا لا يعني ان الشاعر قد تخلى فيما ينظم عن فرديته وانصهر تماما في قبيلته ، ما زال الشاعر حتى وقتنا هذا فرديا متمردا

ويذهب الكاتب الفاضل الى ان الشعراء العباسيين حاولوا الخروج على تنوع الموضوعات في القصيدة الواحدة ، وأعتقد ان محاولات أخرى سبقت العصر العباسي وجاءت عفوية عند الشاعر عمر بن أبي ربيعة ـ من أوائل الشعراء العرب الذين كانت لقصائدهم وحدة موضوع بمعناها الشائع ـ وشعراء عذريين وغير عذريين آخرين ، وهذا يؤيد ما ذهب اليه الكاتب الفاضل من ان : « القصيدة العربية حاولت عبر العصور أن تبحر الى وحدة القصيدة ووحدة الموضوع فنجحت في بعض الفنون الشعرية دون بعضها ، نجحت في الشعر الوجداني وظلت في الغالب متعلقة بالاسلوب القديم في المدح والهجاء وحتى في الرثاء ، وسنرى ان سبب هذه الازدواجية هو مقدار اخلاص الشاعر في التعبير عن تجربة ومعاناة حقيقية ومقدار تكسبه واصطناعه للشعر اصطناعا » ، (ص ٦٩) .

ويقول الكاتب : « اننا حينما نتهم القراء بأن الوحدة تنقص عقولهم وان القصيدة العربية غير مسؤولة عن عدم الوحدة التي يلصقها النقاد بها نكون غير مبررين حسب ما أعرف في طرق الدراسة الادبية ومناهجها » (ص ٦٩) ، واظن اني أستطيع ان ابرر ذلك تماما ، لقد رأيت طيلة سنين عديدة مئات من الناس يقرأون قصائد متفرقة فيؤكدون على بيت او نصف بيت أو بضعة أبيات ، يحفظون هذه الاجزاء المقتطعة ليرددوها أمام زوجاتهم أو أبنائهم أو أصدقائهم أو طلابهم ليقولوا لهؤلاء المخاطبين ان هذا الاستشهاد ينطبق على معاناتهم المتخيلة لبؤس الحياة وتخلفها أو التذمر من خيانة الاصدقاء ، أو الشكوى من ان آخرين قد تقدموا في هذه الحياة وهم ما زالوا في زواياهم المنسية لان تقدير النابغين ليس من سمات هذا العصر ، ان هذا يعني ان وحدة ما لاي اثر فني ، قصيدة ـ أغنية ـ لوحة ـ تمثال ـ قطعة موسيقية ، لا يمكن أن تتم في عقولهم لان الانانية سدت عليهم الابواب جميعا ، فهم لا يفهمون من مظاهر الحياة كلها الا ما يتفق وتلك الانانية ، ولذا نراهم يقتنصون الابيات أو جزءا منها لتطمئن رغباتهم الخاصة وتفلسف وجودهم الغبي ، وهكذا أصبح قسم من انتاج بعض شعرائنا متنفسا للانانية المتكلسة عند هؤلاء ، وبهذا أصبحت مهمة الشعر عندهم لا تمت بصلة الى الفن ، ولكثرة هؤلاء في كل العصور انقلبت المفاهيم الشعرية وأصبحت اهانات المتنبي حكما وشتائم شعراء آخرين فخرا ، وعلى هذا الاساس كتبت مقالي : الادب العربي ليس مقروءا ، وسأعقبه بمقالات أخرى تحمل العنوان نفسه وتتناول كثيرا من قضايا شعرنا القديم والحديث .

ويختتم الكاتب الفاضل بحثه بآراء طيبة جدا في الشعر الحديث وأهم ما يميزه عن الشعر القديم ، ولا يسعني هنا الا ان أشكر للدكتور حسام الالوسي اهتمامه بما أكتب ومناقشاته الرائعة التي حظي بها مقالي ذاك .

جلال الخياط

بنغازي ـ كلية الاداب والتربية